

أستاذ أجيال

ما أشبه تاريخ أستاذنا أحمد لطفى السيد بتاريخ بلادى!! كلاهما فى حاجة إلى مؤرخ يعيد كتابته بفهم وعدالة. ولست هذا المؤرخ على أى حال!

عرفت لطفى السيد منذ ثلاثة وعشرين عاماً، وكان فى حدود السبعين، وكنت قد قرأت له ترجمة لكتابى أرسطو: «السياسة» و«الكون والفساد»، فاستهوانى أسلوبه الذى يتميز بالدقة والتركيز، والنفور من فضول السجع والمترادفات.. وأغرانى أسلوب لطفى السيد بأن أعكف على قراءة مجموعة «الجريدة» التى كان يرأس تحريرها عام ١٩٠٧، وقرأت له مقالات نشرها فى تلك السنة ومابعدها من سنوات.. لأذكر الآن عددها. وقد أذهلتنى أفكاره، وتعبيراته، ومجادلاته المنطقية. ولم أهتم بأن أعرف حقيقة «حزب الأمة» الذى كان لطفى السيد ينطق بلسانه، وهل كان يناوىء الخديو وحكم الأتراك لحساب الإنجليز، أو أنه كان يتهاون مع الإنجليز

ليخلص البلاد من ولاية تركيا وأسرّة محمد علي.. ثم يتفرغ بعد ذلك لحاربة الاحتلال. كما يؤكد بعض الذين أصابهم رشاش من انتماهم لحزب الأمة؟

كان في استطاعتي إذ ذاك أن أناقش لطفى السيد نفسه في هذا الموضوع الشائك، وأنا واثق من أن الرجل لن يجد حرجاً في أن يقول الحقيقة، ولو اقتضاه ذلك أن يدين نفسه. فقد كان لا يهرب من الحقيقة، وكانت شجاعة الرأي من أبرز مزاياه.

ولكني لم أفعل، فقد فتنتني شخصية لطفى السيد المفكر، وطفعت على شخصية لطفى السيد السياسي. كنت أجد متعة غامرة في الإصغاء إليه وهو يتحدث عن الأدب، والشعر، والفن، والجمال، والمذاهب الفلسفية القديمة والحديثة، وكان بارعاً في سرد الحكايات، يحسن رواية الدعابات ويحسن أيضاً الإصغاء إليها بأذنه، وبابتسامته التي تتحول أحياناً إلى شبه قهقهة!

وقبل ثورة ٢٣ يوليو من عام ١٩٥٢ التقيت به في فندق سيسل بالإسكندرية، وكان يقص علينا بصوت خافت،

مايسمعه كل يوم من المهازل والمخازى التى يروها له أصدقاؤه
عن الملك.

وفى أحد الأيام قابلته فى الردهة الخارجية للفندق، وكان
يجلس وحده، وناس كثيرون يملأون الردهة فأمسك بيدي،
وقادنى إلى أحد الصالونات، وهو يقول:

- إننا الآن نمشى فى الطريق إلى مستشفى المجاذيب.
ولم أفهم مايعنيه بهذه الكلمة، ولما جلسنا فى الصالون
روى لى قصة الصفقة التى عقدها عبود مع فاروق لإقالة وزارة
الهلالى وتأليف وزارة برياسة حسين سرى، وكيف أن الملك
تقاضى من عبود نصف مليون جنيه..

وعقبت قائلاً: عندك حق.. هذا تصرف مجازين!

فقال: إنك لم تفهم ما أعنيه بالطريق إلى مستشفى
المجازيب.. لقد قصدت أن أبصرك بأن الأوامر صدرت بأن
يأق إلى هذا المستشفى كل من يتناول الذات الملكية، بالعيب
أو التجريح!

واستطرد يقول: لقد كثرت قضايا العيب فى الذات

الملكية.. فرأى القصر أن تحفظ النيابة هذه القضايا بعد أن يعتذر المتهمون ويسجلوا ولاءهم للملك «منعاً للشوشرة» وفي يوم الجمعة الماضي وقف أحد الشبان في المسجد ومنع الخطيب من مغادرة المنبر، وخاطب المصلين قائلاً: من كان منكم حريصاً على دينه فليعلم أن صلاته وراء هذا الرجل باطلة.. لأنه يدعو لملك فاجر فاسق.. صلوا ورائي.. وصلني الناس وراء الشاب وتركوا خطيب المسجد يصلي وحده!

وقبض البوليس على الشاب وساقه إلى النيابة، وقال له وكيل النيابة: إنني لا أرضى لك أن تذهب إلى السجن. ولذلك سأسألك هل قلت هذا الكلام؟ وما عليك إلا أن تنكره وتؤكد ولاءك لمولانا الملك.. وعندئذ سأطلق سراحك فوراً..

والنفت وكيل النيابة إلى الكاتب وقال له افتح المحضر، وبدأ يقول للشاب: أنت متهم بأنك تفوهت بكلمات تمس الذات الملكية.. فهل هذا صحيح؟؟

وقال الشاب: نعم!! هذا صحيح!

وقال وكيل النيابة: أنت طبعاً لاتقصد جلالة الملك

مولانا الذى نكن له جميعاً صادق الولاة؟

فقال الشاب: أنا لا أقصد سوى هذا الملك الفاسق

العريء!

وأسقط فى يد وكيل النيابة، وأسرع فقابل النائب العام،
وعرض عليه المشكلة، واتصل النائب العام بالقصر وأبلغ
المستولين بما حدث وسألهم: ماذا نصنع إزاء هذا الموقف
الغريب؟ فطلبوا منه أن يسوق الشاب وأمثاله إلى مستشفى
المجازيب!

وضحك لطفى السيد وقال: وهكذا أصبح كل من يقول
كلمة عن الملك.. معرضاً لدخول مستشفى المجازيب..

ولطفى السيد الكاتب المفكر المؤمن بالحرية.. ذو العقلية
الفلسفية، كان يؤيد دعوة قاسم أمين إلى مساواة المرأة بالرجل
فى الحقوق والواجبات، وكان أحد ثلاثة بذلوا جهوداً شاقة
لإنشاء جامعة أهلية مصرية، أما زميلاه فى هذا العمل
العظيم.. فهما سعد زغلول وقاسم أمين. وعندما أصبحت
الجامعة الأهلية جامعة رسمية، كان هو أول مدير لها. وقد
أرسى فيها قواعد البحث العلمى الأكاديمى، وحمى استقلالها،

واستقال احتجاجاً على إقالة الدكتور طه حسين من عمادة كلية الآداب.

والحق.. أن لطفى السيد باتجاهاته الذهنية واتساع آفاق تفكيره، وإيمانه المطلق بحرية الرأي والعقيدة.. كان جامعة قبل إنشاء الجامعة وقد تخرج في الجامعة أساتذة كبار تأثروا به، وأخذوا عنه تقاليده في التلقين والمحاضرة والجدل، وكان على رغم ثقافته الفلسفية والقانونية، مشغولاً بالآداب العالمية وله ذوق رفيع في الشعر العربي، وقد أبدى لى إعجابه بشعر ديوان الحماسة والمنتهى والمعرى والشريف الرضى، وكان يترنم بكثير من أشعارهم.

عندما سمعت أن لطفى السيد لفظ أنفاسه الأخيرة.. خيل إلى أن هرمًا عاليًا من الفكر والثقافة.. قد توارى في التراب وأحسست أنى أبكى.. لم تبك عيناي.. ولكن عقلى أجهش بالبكاء!!

يحرق مذكراته..

منذ تسعة عشر عاماً قابلت لطفى السيد، وسجلت هذه المقابلة في حديث صحفي - قلت فيه :

اسم عادى لشخص غير عادى.. عقل وخلق وضمير.
صوت قوى عذب ظل يغنى لجيله المعرفة والثقافة والفلسفة.
ولكن جيله كان بلا آذان.. فما زال به حتى جعل له أذنين،
ولساناً وشفتين، فسمع الجيل، ووعى، وفكر، وتكلم!

وقد بدأ أستاذ الجيل يؤدي رسالته منذ ستين عاماً..
كانت مصر في حالة المحلل، كان احتلال بريطانيا ونفوذ تركيا
يجمان فوق صدرها، كان الجهل والعبودية يتنازعان عقلها
ونفسها. وهبط إلى مصر رجل لفت الأنظار، وجذب القلوب،
وأثار الحماسة والتحرراً كان هذا الرجل هو جمال الدين
الأفغانى المصلح الإسلامى الشائر. والتف حوله الشباب،
وتأثروا بتعاليمه، وآرائه. وكان يدعو إلى الإطاحة بسوء وس
الطغاة والحاكمين العابثين بمصالح الشعب.

وكان الشيخ الأفغانى يؤثر في شباب مصر ومن بينهم أحمد

لطفى السيد.. ولكن تأثر لطفى السيد لم يدفعه إلى أن يهجم
بقتل أحد، وإنما دفعه إلى أن يقاتل السخافات والخرافات
والجهل. فحمل قلمه وجاهر به واستطاع أن يقتل ويغتال.
قتل الأوهام وأحيا الحقائق. واغتال الظلام وأشعل المصابيح..

أرأيت لطفى السيد في أواخر أيامه؟

قوام مستقيم، وخلق مستقيم. عينان نفاذتان وعقل نفاذ،
جبهة عريضة، وجاه عريض.

ولكنك لم تر لطفى السيد منذ ستين عامًا، أو أكثر..
فلنطو السنين القهقري معًا.. لنرى لطفى السيد يغادر مدرسة
الحقوق هو وزملاؤه عبد الخالق ثروت وإسماعيل صدقي وعبد العزيز
فهمى.

صوب نظرتك إليه اليوم، صوبها جيدًا، واقترب من
القوام الفارع، وقوم الخنائه الخفيفة، وأمسك بالوجه بين
يديك، وامسح تجاعيده، وافتح العينين واسكب فيها كثيرًا من
الومض الذى اختفى.. والتقط بأصابعك الشعرات البيض فى
رأسه وفى حاجبيه. ثم اطو السنين الستين التى مضت، يئدُ
لك لطفى السيد كما كان فى سنة ١٨٩٨..



لقد لمع اسمه في ذلك الحين شاباً مفكراً، يتحدث عن
أرسطو وأفلاطون، والفارابي، والغزالي. وكان زملاؤه يتحدثون
عن الحريري ويديع الزمان الهمذاني وابن نباتة المصري!!

واشتغل لطفى السيد مساعد نيابة ولبث في الوظيفة سنتين
ثم غادرها إلى المحاماة. لم يكن مكتبه حافلاً بالزبائن ولم
يكن هو في حاجة إليهم. إن أباه السيد باشا أبو علي قد
كفاه مشقة السعي المادي للحصول على حاجات الحياة.

وفي يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦ وقع حادث دنشواي،
الحادث الذي اهتزت له البلاد وارتكبت فيه بريطانيا أشنع
جرائم العنف والظلم والطغيان. واشترك لطفى السيد مع
زملائه المحامين عن المتهمين في دراسة القضية. وقد كانت له
طريقة خاصة في المرافعة..

كان المحامون يترافعون فيخطبون ويصيحون ويهتفون، أما
هو فكان يتكلم كأنه يكتب، كان في مرافعته يفكر بصوت
مسموع!

هذا الرجل الشجاع المفكر لا بد له من مجال تظهر فيه
أثار حرته وشجاعته وفكره.

إن الصحافة هي هذا المجال.. ولكن صحف ذلك العهد كانت تتسع للألفاظ وتضيق بالمعاني. وهو رجل كله معان.

كانت تدعو إلى التحرر من احتلال بريطانيا وإلى الولاء لسلطان تركيا، وهو رجل يريد لبلاده أن تتحرر من بريطانيا وتركيا معاً، فلينشئ صحيفة جديدة إذن. وأنشأ «الجريدة» وساعده على إنشائها حزب الأمة.. وبدأ الأسلوب العربي الجديد يشق طريقه إلى الأذهان، إن أسلوب لطفى السيد اليوم. هو أسلوبه بالأمس.. أسلوب المسدس: تنطلق الكلمة كالرصاصة.. والرصاصة تصيب الهدف. وكان الأسلوب العربي إذ ذاك أشبه بالسيف يدور في اليد ويلف ويهبط إلى تحت ويصعد إلى فوق.. ثم لا يصيب الهدف!!

نحن الآن في ١٩٤٩ في منتصف القرن العشرين فلنمض لحظات مع الرجل الذي هدم خرافات القرن الماضي واشترك في بناء القرن الجديد! دخلت عليه في عمرابه في مكتبة داره بمصر الجديدة، إن الذين يقابلهم في هذا الركن هم أعز أصدقائه، وأحبابه. أرسطو وأفلاطون وأنتول فرانس وأبوالعلاء المعري والغزالي.. وأحياناً شوقي والمتنبي!

كان متعباً، لأول مرة أشعر بوطأة السنين تضغط قوامه .
كانت الأيام من قبل تمشى في عظامه بخطى متشدة، ولكنى
أراها الآن وكأنها تثب وتعدو. عرفته دائماً منتصب القامة..
ولكنه في هذه المرة اضطر -لكى يسمعى. إلى أن يحنى هامته
ويعد رقبته قليلا إلى الأمام، ويصوب أذنه نحو فمى!..

كان في دور النقاهة.. وقال لى : تحدث أنت.. فإن
الكلام أصبح يرهقنى، ولولا أنى لا أحسن الشكوى، لشكوت
من زمان طويل!

قلت إن الجيل الجديد كله في حاجة إلى حياتك وإلى
شيخوختك.. إنك المثل الحى للحرية والاضطهاد.. ولقد
استطعت بحريتك أن تنتصر على مضطهديك!! فطغى أسلوبك
وانتشرت تعاليمك السامية..

قال أية تعاليم؟.. إننى لم أفعل شيئاً! كل ما هنالك أنى
ساهمت فى الحركة التى قام بها بعض المصلحين من أبناء
زمانى أمثال سعد زغلول وحسين رشدى وعبد الخالق ثروت
وقاسم أمين وعلى شعراوى ومحمد عبده.. وكانت مهمتنا
- أقصد مهمتهم - صعبة جداً. كنا نحاول أن نشق للشعب

طريقاً في جبل شامخ له ذروتان.. إحداهما ذروة الخديو،
والأخرى ذروة الإنجليز. كنا نطالب الخديو بدستورنا ونطالب
الإنجليز بحريتنا..

إلى أن كانت ثورة ١٩١٩، وفي هذه الثورة وحدها..
استطاعت الأمة أن تعبر عن إرادتها تجاهد وتصمد في
جهادها، والفضل في ذلك يرجع إلى الإنجليز.. لا تدهش.
إنهم هم الذين أوقدوا نار الثورة برعوتهم وتصرفاتهم
الطائشة!! ولست أقول ذلك الآن فقط..

في سنة ١٩١٩ نفسها سأل «كيرزن قاتلاً»: أريد أن
أعرف من هو المسئول عن هذه الثورة؟

فكان جوابي أنتم المسئولون عن ثورة المصريين. إن
احتلالكم وهماقاتكم المتكررة مع الشعب كانت وقود النار،
وعود الثقاب.

قلت: إن هذا تاريخ حافل.. وأنت قد عشت ذلك
التاريخ.. بل لقد صنعتته فأين مذكراتك عنه..

فقال: مذكراتي؟.. لقد أحرقتها!!

قلت: إنها تاريخ بلادك.. فكيف أحرقتها؟

قال : في يوم من أيام سنة ١٩١٩ عندما نفي سعد زغلول. ولا أذكر الشهر تمامًا، كنت جالسًا مع علي شعراوي في بيته، وكان معنا عبد العزيز فهمي، وجاء يوسف نحاس وأخبرنا أنه علم أن الإنجليز قرروا أن يلقوا القبض على أربعة من أعضاء الوفد. وبجردوهم من أموالهم ويعلموهم رميًا بالرصاص. ثم قال معقبًا. إنه لا يستبعد أن نكون نحن الثلاثة في مقدمة هؤلاء الأربعة. ولما سمعت هذا النبأ لم أستغرب وقوعه.. فإنه ليس إلا حلقة من سلسلة الحماقات التي ارتكبتها بريطانيا معنا، ولم يكن يؤلني أن أموت رميًا بالرصاص أو شنقًا، فالموت حقيقة لا بد من مواجهتها مهما طال اختباؤها في السنين... ولم يكن يهمني حرمانى من مالى.. فليس للمال مكان بين القيم التي أعتز بها.. ولكن خشيت من أن تهاجم السلطات البريطانية بيتى، نفتشه وتعثر على مذكراتى السياسية، وقد دونت فيها جميع الحقائق وكان بعضها حلواً، وكان بعضها مرأاً، وفي المذكرات الخاصة يسجل الإنسان كل صغيرة وكبيرة، وقد كانت الصغائر التي تمس حركتنا كثيرة جداً، كنت أسجل في مذكراتى رأى سعد زغلول في ثروت ورشدى وعدلى.. ورأى ثروت وعدلى ورشدى في

سعد زغلول وهكذا.. وكانت المذكرات تتضمن أسرارًا خطيرة.. إذا اطلع عليها الإنجليز.. استطاعوا أن يؤذوا الحركة إيذاء شديدًا..

ولهذا لم أكد أسمع النبا الذي ألقاه يوسف نحاس.. حتى بادرت بالذهاب إلى بيتي في سيارة على شعراوى، وكان البيت في المطرية، وعقب وصولي إليه.. اتجهت إلى مكتبي وأخرجت كل ما في الدولاب من الأوراق والمذكرات والوثائق.. وأمرت الخادم أن يضعها في الحمام.. ثم أشعلت فيها النار.

ولا أكتفك أن حزنت، لقد أحسست أن النار تحرق أفكارى وآرائى وحقبة مهيبة من تاريخ بلدى..

وانتظرت إلى الساعة الثانية صباحًا.. فلما لم يجيئ أحد دخلت غرفة نومى، وفي اليوم التالى انتظرت فلم يجيئ أحد.. وإلى اليوم.. لم يجيئ أحد.. ولم أعدم رميًا بالرصاص كما ترى.. وكل ما هنالك أن مذكراتى هى التى أعدمتم أو على الأصح أحرقت، وقد أحرقتها بنفس اليد التى كتبتها..

قلت: هذه خسارة كبيرة ولا شك..

فقال: لا أظن.

قلت : إنها تاريخ .

قال : وما قيمة التاريخ ؟ لقد كان فلاسفة الهند وهم في أوج تفكيرهم قبل ميلاد المسيح ثلاثة آلاف سنة . . يصنعون المعجزات ولكنهم كانوا يعجزون عن أن يؤرخوا ما يصنعونه !
إن العبرة ليست بمقدمات التاريخ . . ولكن العبرة بنتائج التاريخ .

قلت : وماذا ترون في نتيجة تاريخنا ؟

قال : إن النتيجة عظيمة ولا شك . . إن ما نقاسيه من عذاب وشقاء واضطراب . . يهون حتماً أمام أننا أصبحنا أحراراً ، وأننا رأينا الاحتلال البريطاني وهو يتقلص من المدن ، وسيأتي اليوم الذي يزول فيه من بلادنا كلها . .

لقد كنا في الماضي أكثر شجاعة . . . واليوم أصبحنا أكثر حرية .

قلت : والشجاعة ؟

فقال : إنها لا تزال مع الأسف تعيش في الماضي فقط .

قلت : ولكن كيف ؟! وقد أصبح لنا جيش حارب فعلاً وأبدى ضرورياً من الشجاعة . .

فقال لا أقصد شجاعة الجيش.. فهذا فخر لا جدال
فيه.. ولكنى أقصد شجاعة الرأى.. وهذا ما لانزال فى
حاجة إليه !!

إن لطفى السيد لم يكن أستاذ جيل واحد.. بل كان
أستاذ ثلاثة أجيال، فقد عاش أكثر من سبعين عاماً، ورأى
بعينه بلاده وقد تحررت من الإنجليز ومن أسرة محمد على..

